ومهما شاركت المسيحَ سائرُ الكلمات تكوينية وتشريعية، لم يكن ليشاركه في ﴿كُن﴾ الخارقة ولادة دون أب، اللهم إلّا آدم عليه السلام ولكنه - مع ذلك - لا يستحق كرامة هذه «الكلمة» لعدم ولادته هكذا وإنما خلق من تُرابٍ ولعدم جمعه سائر معاني الكلمة، إلّا في بعضها عدّة وعدّة ضئيلة.

ومهما يكن من شيء فكلمة اسمه المسيح تصدق كأصدقه على تكوينه الخارج عن المألوف، وقد ألقيت إلى مريم لقاحاً رجولياً دونما رجل!. ﴿وَجِيهًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾.

﴿وَجِيهًا﴾ عند الله، وعند المخصوصين بالله والمقربين إلى الله ﴿وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ وهم أفضل الوجهاء عند الله، وهم السابقون كلّ الخلق في معرفة الله وعبادته: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝١١﴾[1].

والمقرَّبون هم الذين قربهم الله إليه بما تقربوا إليه سعياً لأعلى قممه، فأتم الله تقربهم إليه بما قربهم، فعصمهم من كلّ زلة وضلة.

أجل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾ ليس من صلب رجل وإنما بنفخ منه ﴿ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ وقد تعني تذكير ﴿كَلِمَةٍ﴾ هنا واقع ذكورة المسمّى، وأنها لا تعني - فقط - كلمة لفظية، بل وتكوينية هي واقع تكوينه المنقطع النظير.

وذلك من غرائب القرآن وبدايعه وعجائبه، حيث يذكِّر الكلمة في الضمير الراجع إليها رجعاً إلى معناها، فلو قال «اسمها المسيح» لألبس اللفظ إذ لم يتقدم هنا ذكر المسيح عليه السلام ما يؤمن الالتباس.

ثم نراها مؤنثة الضمير فيما أمن الالتباس ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾[2] حيث تقدمت هناك أسماء المسيح وتعريفاته التي تؤمن الإلباس.

(١) سورة الواقعة، الآيتان: ١٠، ١١.
(٢) سورة النساء، الآية: ١٧١.

أو يُقال تأنيث الضمير الراجع إلى ﴿كَلِمَةٍ﴾ مرة وتذكيره أخرى دليل الجواز للصورتين اعتباراً لمجاز التأنيث.

أو أن المعنيين معنيَّان، جمعاً لأدب اللفظ إلى أدب المعنى، وذلك من ميِّزات القرآن العظيم، أن يجمع ميزات الألفاظ إلى ميزات المعاني.

ثم ﴿ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ هو أجمع اسم وأشمله له عليه السلام، وقد جاء المسيح إحدى عشرة مرة، وعيسى ابن مريم خمساً وعشرين مرة في القرآن كلّه، مما يدل على أن عيسى ابن مريم هو اسمه الأصيل، وعلّ المسيح لقب له يصفه.

﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾:

ففي المهد لما أشارت إليه ﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا...﴾[1].

﴿وَكَهْلًا﴾ وهو منذ ثلاثٍ وثلاثين من سنّي عمره الشريف أو العشرين حيث ابتدأ واقع نبوته ودعوته، وهو بين مهده وكهله لم يُكلِّم الناس رسالياً، وإنما في المهد رسولياً ذوداً عن ساحته وأُمِّه وكما كان يبشِّر به بلسان يحيى عليه السلام.

فنبوَّته - وهي بعد رسالته - ابتدأت منذ كهولته، مهما كان نبيّاً ينبأ بالوحي غير الرسالي بين المرحلتين، كما كان محمد صلى الله عليه وآله وسلم قبل بعثته[2].

---

(١) سورة مريم، الآية: ٣٠.

(٢) نور الثقلين ١: ٣٤٦ في كتاب كمال الدين وتمام النعمة بإسناده إلى محمد بن إسماعيل القرشي عمن حدثه عن إسماعيل بن أبي رافع عن أبيه قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إن جبرئيل نزل عليَّ بكتاب فيه خبر ملوك الأرض وخبر من بعث قبلي من الأنبياء والرسل - إلى أن قال -: لما ملك أشج بن أشجان وكان يُسمى الكيس وقد كان ملك مائتين وستاً وستين سنة ففي سنة إحدى وخمسين من ملكه بعث الله عز وجل عيسى ابن مريم عليه السلام واستودعه النور والعلم والحكمة =

. . . . . .

= وجميع علوم الأنبياء قبله وزاده الإنجيل وبعثه إلى بيت المقدس إلى بني إسرائيل يدعوهم إلى كتابه وحكمته وإلى الإيمان بالله وبرسوله فأبى أكثرهم إلّا طغياناً وكفراً فلما لم يؤمنوا به دعا ربه وعزم عليه فمسخ منهم شياطين ليريهم آية فيعتبروا فلم يزدهم ذلك إلّا طغياناً وكفراً فأتى بيت المقدس فمكث يدعوهم ويرغبهم فيما عند الله ثلاثاً وثلاثين سنة حتى طلبته اليهود وادعت أنها عذبته ودفنته في الأرض حيّاً وادعى بعضهم أنهم قتلوه وصلبوه وما كان الله ليجعل لهم عليه سلطاناً وإنما شبه لهم وما قدروا على عذابه ودفنه ولا على قتله وصلبه لقوله عَزَّوَجَلَّ : ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [آل عِمرَان: ٥٥] فلم يقدروا على قتله وصلبه لأنهم لو قدروا على ذلك لكان تكذيباً لقوله ولكن رفعه الله بعد أن توفاه فلما أراد أن يرفعه أوحى إليه أن يستودع نور الله وحكمته وعلم كتابه به شمعون بن حمون الصفا خليفته على المؤمنين ففعل ذلك.

وفيه عن الرضا عليه السلام قد قام عيسى عليه السلام بالحجة وهو ابن ثلاث سنين، وفيه ٢٥٧ عنه عليه السلام قال: إن الله احتج بعيسى عليه السلام وهو ابن سنتين.

وفي بحار الأنوار ١٤: ٢٥٦ عن الكافي الحسين بن محمد عن الخيراني عن أبيه قال: كنت واقفاً بين يدي أبي الحسن عليه السلام بخراسان فقال له قائل: يا سيدي إن كان كون فإلى من؟ قال: إلى أبي جعفر ابني، فكأن القائل استصغر سنَّ أبي جعفر عليه السلام فقال أبو الحسن عليه السلام: إن الله تبارك وتعالى بعث عيسى ابن مريم عليه السلام رسولاً نبياً صاحب شريعة مبتدأة في أصغر من السن الذي فيه أبو جعفر.

أقول: لا يدل «أصغر» هنا على أنه منذ مهده، فلعله كان منذ سبع أو ثمان قبل التسع التي كان عليها أبو جعفر عليه السلام وكما في البحار ١٤: ٢٥٥ عن الكافي عن يزيد الكناسي قال: سألت أبا جعفر عليه السلام كان عيسى ابن مريم عليه السلام حين تكلم في المهد حجّة الله على أهل زمانه؟ فقال: كان يومئذ نبياً حجّة الله غير مرسل أما تسمع لقوله حين قال: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ [مريَم: ٣٠]؟ قلت:

فكان يومئذ حجة الله على زكريا عليه السلام في تلك الحال وهو في المهد؟ فقال: كان عيسى في تلك الحال آية للناس ورحمة الله من الله لمريم عليها السلام حين تكلم فعبّر عنها وكان نبياً حجة على من سمع كلامه في تلك الحال، ثم صمت فلم يتكلم حتى مضت له سنتان وكان زكريا الحجة لله عَزَّوَجَلَّ على الناس بعد صمت عيسى عليه السلام بسنتين ثم مات زكريا عليه السلام فورثه ابنه يحيى الكتاب والحكمة وهو صبي صغير أما تسمع لقوله عَزَّوَجَلَّ : ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريَم: ١٢]، فلما بلغ عيسى سبع سنين تكلم بالنبوة والرسالة حين أوحى إليه فكان عيسى الحجة على يحيى وعلى الناس أجمعين وليس تبقى الأرض يا أبا خالد يوماً واحداً بغير حجة على الناس منذ خلق الله آدم عليه السلام وأسكنه الأرض.

فلو أنه كان يكلِّم الناس رسالياً بينهما كما فيهما لكان صحيح العبارة عنه «ويُكلِّم الناس طول عمره - أو - منذ مهده إلى صعوده» ولكنه ﴿فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ كما يقال مرجعنا مرجع للتقليد في إيران وفي باكستان، حيث لا يعني أنه كذلك مرجع في البلاد الفاصلة بينهما فإن حق تعبيره - إذاً - في إيران إلى باكستان.

فقد كان تكليمه الناس ﴿فِي ٱلْمَهْدِ﴾ بشارة تمهيدية لرسالته كهلاً، وذوداً عن ميلاده وصمةَ الرجس، فهو يحمل خارقة حالية في أصلِ تكليمه وهو وليد سويعات، وأخرى استقبالية حيث يكلمهم رسالياً «كهلاً».

كما وأن تكليمه «كهلاً» وهو في نفسه خارقة، تحقيقاً لكلامه في المهد، نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء.

ونرى كهلاً يحض فقط السنَّي الثلاث لرسالته الظاهرة؟ وهي ثابتة منذ بعثه إلى ابتعاث محمد ﷺ!.

إن تكليمه «كهلاً» ينقسم إلى التكليم الرسالي منذ بعثه إلى صعوده جاهراً ظاهراً، وتكليمه برسالته منذ صعوده حتى مبعث الرسول محمد ﷺ، ثم وتكلمه بغير الرسالة الفعلية حين ينزل ويصلي خلف الإمام المهدي عليه السلام، فإنه منذ الرسالة المحمدية أصبح من أمته ﷺ دون عزل عاضل قاحل، وإنما هو انعزالٌ فعليٌّ بشأن الائتمام بمن هو أفضل منه، على عصمته وقداسته الرسالية السامية، حيث العصمة لا تختص بالرسول والإمام معه أو بعده، فقد حمل العصمة الثالثة بعد الأولى وهي نفسها إلّا الرسالة.

ولئن رفع المسيح عليه السلام وله ثلاث وثلاثون سنة والكهل ما اجتمع قوته وكَمُل شبابه مأخوذاً من اكتهل النبات إذا قوي، ففي غالب الظن أنه بدأ بالدعوة الرسالية منذ العشرين، إلّا إذا دلَّ دليلٌ قاطعٌ على أكثر منه، وقد يُروى عن الرسول ﷺ أن سني دعوته الرسالية بشخصه كانت ثلاثاً وثلاثين

سنة، إذاً فقد يكون صُعوده في ثلاث وخمسين من عمره الشريف، ورسالته منذ كهولته كما تلمحناها من ﴿وَكَهْلًا﴾ ويدل عليه الإنجيل[١].

وترى ما هو دور ﴿وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ هنا، بعد ﴿وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ هناك؟

قد تعني ﴿مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ الصلوح لتلك الرسالة العظمى والنبوة العُليا، دون مطلق الصلاح الشامل لمطلق الوجهاء والمقربين.

ذلك - وكما يلتمسه سليمان النبي ﴿وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[٢] وأفضل منه إبراهيم من قبل ﴿رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾[٣] - ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[٤].

هذا - وقد تعني ﴿مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ فيما عنت تحليق الصلاح على كلِّ كيانه، كعبارة ناطقة عن كلّ نبوة الصلاح وحلقاته بعد ما ذكر قسم منها عظيم، فهو إذاً تعميم بعد تخصيص.

---

(١) في إنجيل يوحنا ١: ١٩: ٢٧: وهذه شهادة يوحنا حين أرسل اليهود من أورشليم كهنة ولاويين ليسألوه من أنت؟ فاعترف ولم ينكر وأقر أني لست أنا المسيح فسألوه إذاً ماذا؟ إيليا أنت؟ فقال: لست أنا، النبي أنت؟ فأجاب: لا، فقالوا: من أنت لنعطي جواباً للذين أرسلونا ماذا تقول عن نفسك؟ قال: أنا صوت صارخ في البرية، قوّموا طريق الرب كما قال أشعياء النبي وكان المرسلون من الفريسيين فسألوه وقالوا له: ما بالك تعمّد إن كنت لست المسيح ولا إيليا ولا النبي أجابهم يوحنا قائلاً: أنا أعمد بماء ولكن وسطكم قائم الذي لستم تعرفونه هو الذي يأتي بعدي الذي صار قدامي الذي لست بمستحق أن أحل سيور حذائه».
أقول: فقد كان المسيح قائماً بينهم وهم لا يعرفونه بالرسالة الفعلية وكيف يقوم بينهم وهو في المهد صبياً.

(٢) سورة النمل، الآية: ١٩.

(٣) سورة الشعراء، الآية: ٨٣.

(٤) سورة العنكبوت، الآية: ٢٧.

﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾﴾:

﴿قَالَتْ﴾ محتارة من بشارة الولادة ﴿رَبِّ﴾ الذي ربيتني تكوينياً لا أنتج ولداً إلّا بأسبابه المقررة عندك، وتشريعياً إذ طهرتني عن كلّ سوءٍ وفحشاءٍ فـ ﴿أَنَّىٰ﴾ بالإمكان عادياً ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ لا حلاً ولا - عوذاً بك - حراماً: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾[1].

﴿قَالَ كَذَٰلِكِ﴾ البعيد في حساب الخلق، العظيم الكريم في تكريم من يشاء ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ بمشيئة طليقة دونما رادعٍ أو مانعٍ ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا﴾ ليكون أياً كان، فليس يحتاج إلى تقدمات هو مقرِّرها ومقدِّرها في متعوَّد التكوين ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن﴾ وهو قول الإرادة الربانية ولا مخاطب له إلّا التكوين دون الكائن به فإنه من تكوين الكائن ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ دونما نَظِرةٍ لآمرٍ آخر أو أمر آخر.

﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾﴾:

علّ ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ هنا - وهو جنسه - كلّ كتابات السماء النازلة قبله، وذلك من شروطات كلّ رسالة لاحقة أن يُعلَّم رسولها سابقتها بسابغتها، حيث الرسالات ككلّ هي سلسلة موصولة بعضها ببعض، صادرة عن مصدر واحد، واردة إلى أمة واحدة، مهما اختلفت شكليات وطقوس ظاهرية فيها.

﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ هنا بعد الكتاب، هي تحكيم عرى الوحدة بين كتابات السماء في خُلْدِ الرسول، كما هو بأحرى تحكيم الإنجيل عن أي انفلات في لفظه أو معناه، استفساراً لبعضه ببعض، واستيحاءً فيما يحتاج إلى تفسيره من الله.

(١) سورة مريم، الآية: ٢٠.

وذلك بعد تحكيم فطرته وعقليته وكلِّ إدراكاته وإحساساته بالعصمة البشرية والإلهية تحكيماً عن كلِّ انفراطٍ وانحطاطٍ ليكون حكيماً في حمل رسالة السماء والدعوة الرسالية إلى الله.

ثم ﴿وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ﴾ هما أهم مصاديق «الكتاب» قبل القرآن، وأتَّمها رباطاً بالرسالة العيسوية، حيث التوراة تحمل شريعة الناموس التي لم تُبدَّل في الإنجيل إلّا نذراً.

ومما يلمح له إفرادُ «التوراة والإنجيل» وحدة كلٍّ منهما، دون كثرة مختلَقة ولا سيما في الإنجيل.

﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾:

أتراه فقط ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ دون كافة المكلفين؟ وكما يروى[1] وولاية العزم في رسالة يحملها المسيح تقتضي طليق الرسالة والدعوة دون اختصاص!.

إنه ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ كمبدأ الدعوة ومنطلقها كما كانت لموسى وإبراهيم ونوح عليهم السلام، وكذلك هذا النبي صلى الله عليه وآله وسلم الذي بدأت رسالته في العرب ثم إلى الناس كافة.

وهذه طبيعة الحال لكلِّ داعيةٍ أن يتبنى في البداية كتلة خاصة هم أقرب إليه وأحوج إلى الدعوة أم وأحرى لحملها إلى سائر المدعوين، وقد بلغت

(١) نور الثقلين ١: ٣٤٣ في كتاب كمال الدين وتمام النعمة بإسناده إلى محمد بن الفضل عن أبي حمزة الثمالي عن أبي جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام حديث طويل يقول فيه: ثم إن الله عز وجل أرسل عيسى عليه السلام إلى بني إسرائيل خاصة فكانت نبوته ببيت المقدس.

عامة الرسالة العيسوية لحدّ ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾[١] وهي كالرسالة الموسوية: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[٢].

ذلك! مع تصاريح عدة في آيات أن الرسولين أرسلا إلى بني إسرائيل كأم الدعوة في قراها توحيداً وتوطيداً لعُراها: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا﴾[٣].

ثم وطبيعة الحال في رسالة ناسخة لما قبلها وإن في حكمٍ واحدٍ، أن تشمل كافة المكلفين، ذوداً عن أي ترجيحٍ بلا مرجح، وتوحيداً للشرعة الحاكمة على العالمين في كلِّ دورٍ من أدوار الشرائع الخمس ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾[٤] إذاً فكيف بالإمكان تفرق شرعة الله في دور واحد وبإذن الله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴿١١٩﴾﴾[٥] وحاكمية أكثر من شرعة واحدة في دور واحد هي حاكمية الاختلاف القاصد وهو خلاف الرحمة.

وأما واقع اتِّباع شرائع عدة في طائل الزمن الرسالي، فليس إلّا من واقع التخلف عن شرعة الله ما لم يأذن به الله، حيث أمرنا ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾!.

﴿وَرَسُولًا . . . أَنِّى﴾ وذلك هو القالة الثانية بعد دعوى الرسالة ﴿أَنِّى قَدْ

(١) سورة النساء، الآية: ١٥٩.
(٢) سورة القصص، الآية: ٤٣.
(٣) سورة القصص، الآية: ٥٩.
(٤) سورة الشورى، الآية: ١٣.
(٥) سورة هود، الآيتان: ١١٨، ١١٩.

﴿جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ﴾ ربانية على ما أدعيه من رسالة، آية قاطعة قاصعة أنني رسول من الله، فليست - إذاً - إلَّا خارقة ربانية لا يستطيع عليها أحد إلّا الله: ﴿أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم﴾ كوسيطٍ في تحقيق تخليق الآية الرسالية و﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ﴾[1] فنسبة الخالقية إلى المسيح عليه السلام ليست إلّا بوساطة فيها والخالق هو الله، كما الوالد والد أصالة وقد يعبر عنه بالخالق وسيطاً لخلق الله ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾[2].

﴿أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ﴾ فهنا أذنان تكوينيان: خلقاً كهيئة الطير وهي الهيئة الجسدانية للطير بالأجزاء الحيوانية عظماً ولحماً وعروقاً ودماً وريشاً، ثم نفخاً فيه تكويناً لروح الطير: ﴿... وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ بِإِذۡنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِيۖ...﴾[3] فـ ﴿بِإِذۡنِي... بِإِذۡنِيۖ﴾ تحلقان على كلا الخلقين: خلق جسم الطير ثم خلق روحها.

إذاً فلا دور للمسيح هنا في ﴿أَخۡلُقُ﴾ إلّا اختلاق صورة طينية من الطير، قد يفوقه فيه عمال التماثيل، وأما تحوُّل الهيئة الطينية هيئة جسدانية للطير، ثم نفخ الروح فيها فتكون طيراً، أما هما فليسا إلَّا بإذن الله.

ودور المسيح هنا، المُمتاز عمن سواه، أنه يحمل آية ربانية دالة على رسالته، أن الله يأذن لما صنعه أن يكون كهيئة الطير، ويأذن بما نفخ فيها أن تكون طيراً، تدليلاً على اختصاصه بالله، وما هو هنا إلّا رسالة الله.

فلا دور للمسيح في خلق كشريك لله، أو مخوَّل من عند الله، وعوذاً بالله! فإنما يحمل آية ربانية على اختصاصه بكرامة الرسالة، دون أن يحيط

(١) سورة فاطر، الآية: ٣.
(٢) سورة غافر، الآية: ٦٢.
(٣) سورة المائدة، الآية: ١١٠.

علماً أو قدرة بآية الله، وإلَّا لم تكن آية خاصة بالله، ليُعرف من خلالها رسالةُ الله.

وهكذا تكون كافة الآيات الرسالية لكافة رسل الله بأسرها في حصرها بالله، دون تدخُّل لهم فيها مستقلين فمستغلين، ولا مخوَّلين، ولا شركاء لله في آيات الله، فإنما هم رسل الله فيما يأتون به من آية رسولية أو رسالية، ليس لهم من الأمر شيءٌ تكويناً ولا تشريعاً، فإنما هم حملة شرعة الله بعصمة ربانية تعصمهم عن الخطإ في البلاغ بأبعاده تحملاً للوحي وإبلاغاً وتطبيقاً شخصياً وجماعياً.

ذلك! وكذلك الثلاثة الأخرى بأضرابها من آيات رسولية أو رسالية: ﴿وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ﴾ وهو المولود مطموس العين، أو أعم منه ومن الضرير بعد كونه بصيراً ﴿وَٱلْأَبْرَصَ﴾ الأبيض الجلد بعضاً، وهو داء معروف يصيب الجلد ﴿وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ وكل ذلك كما الطير في بعدية ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ لا سواه: ﴿وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي﴾[1] كذلك ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ بإنبائي، آيات أربع تتجاوب في كونها آية للرسالة العيسوية ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

هذه خطوة أولى لهذه الرسالة السامية تثبت نفسها، ومن ثم كتصديق لها وبيان لمادتها الأصيلة:

﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾﴾:

فتصديق ما بين يديه من التوراة تصديق لرسالة الإنجيل فإن رسالات السماء تتجاوب في جذورها مهما اختلفت في بعض شواكلها، إلّا أن رسالة

(١) سورة المائدة، الآية: ١١٠.